

سُورَةُ الْكَهْفِ

مكية وهي مائة وعشر آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝١﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ وفي وصفه تعالى بالموصول
﴿الَّذِي أَنْزَلَ﴾ إيذان بعظم التنزيل الجليل، إذ عليه يدور فلك سعادة
الدارين، وفي التعبير عن الرسول ﷺ بالعبد، تشريف له وتكريم، لأنه
أعلى مراتب الفخار ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ أي شيئاً من العوج، والعوجُ
بفتحتين في الأجساد، خلاف الاعتدال، والعوجُ بالكسر في المعاني،
والشخص يجب أن يكون كاملاً في ذاته، ثم يكون مكملاً لغيره. وفي قوله
تعالى : ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ إشارة إلى كمال في نفسه.

﴿قِيمًا لِنُنْذِرَ بِأَسَاسٍ شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾ مَكِيثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٢﴾

﴿قِيمًا﴾ إشارة إلى الثاني لأن القيم عبارة عن القائم بمصالح الغير
فالأرواح البشرية كالأطفال، والقرآن الكريم كالقيّم الشفيق، أي قيماً
بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد، على ما ينبيء عنه ما بعده من الإنذار

والتبشير، فيكون وصفاً له بالتكميل بعد وصفه بالكمال ﴿لِيُنْذَرَ﴾ أي لينذر الذين كفروا به ﴿بَأْسًا﴾ أي عذاباً ﴿شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾ أي نازلاً من قبله تعالى، بمقابلة كفرهم ﴿وَبُشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي المصدقين ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ التي بُنِنَتْ في تضاعيفه ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي بأن لهم بمقابلة إيمانهم وأعمالهم المذكورة ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنة وما فيها من النعيم الخالد.

﴿مَّكَينَ﴾ أي مقيمين على وجه الدوام ﴿فِيهِ﴾ أي في ذلك الأجر ﴿أَبَدًا﴾ من غير انتهاء، وتقديم الإنذار على التبشير، لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عن ضلالهم.

﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾.

﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أي وينذر الفجرة الكفرة، المتفوهين بمثل تلك الشناعات العظيمة وهم من كفار العرب، الذين يقولون: الملائكة بناتُ الله، واليهود القائلون: عزيزُ ابنُ الله، والنصارى القائلون المسيحُ ابنُ الله.

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

﴿مَا لَهُمْ بِهِ﴾ أي باتخاذهِ سبحانه ولداً ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ أي ما لهم بذلك شيء من علم أصلاً ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ الذين قلدوهم فتأهوا جميعاً في تيه الضلالة، ما لهم علم بما قالوه، أهو صوابٌ أم خطأ، بل إنما قالوه عن عمى وجهالة، من غير فكر وروية كما في قوله تعالى: ﴿وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم﴾ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي عظمت مقاتلتهم هذه في الكفر والافتراء، لما فيها من نسبته سبحانه إلى ما لا يكاد يليق بجنان عظمتهم وكبريائه ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ صفة للكلمة مفيدة لاستعظام اجترائهم على

التفوه بها ﴿إِنْ يَقُولُوا﴾ أي ما يقولون ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾ أي إلا قولاً كذباً، لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدق أصلاً.

﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ ءَاثِرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ
أَسَفًا﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعٌ﴾ أي مهلك ﴿نَفْسَكَ عَلَىٰ ءَاثِرِهِمْ﴾ غماً ووجداً ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ وعدم إيمانهم ﴿بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي القرآن ﴿أَسَفًا﴾ أي متأسفاً عليهم. شُبِّهَتْ حاله ﷺ في شدة الحزن، على إعراض القوم عن الإيمان بالقرآن، وكمال التحسر عليهم، بحال من يتوقع منه هلاك النفس، إثر فوت ما يحبُّه عند مفارقة أحبته، تأسفاً على مفارقتهم، فالغرضُ تسليّة النبي ﷺ لتخفيف حزنه لعدم إيمان الكفار من أهل مكة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ﴾ أي إنّنا جعلنا ما عليها من الزخارف، والرياش، والذهب، والفضة والنبات والمعدن ﴿زِينَةً لِّهَا﴾ ولأهلها أي لِيَتَمَتَّعَ بها الناظرون، ويتنفعوا بها نظراً واستدلالاً، كما زينا السماء الدنيا بالكواكب، فكل ما على سطح الأرض من حيوان، ونبات، ومعدن هو زينة لها وابتلاء، كما أن الأموال والأولاد زينة أيضاً كما قال سبحانه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

﴿لِنَبْلُوهُمْ﴾ أي لنعاملهم معاملة من يختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فنجازيهم بالثواب والعقاب حسب امتياز مراتبهم، علماً وعملاً، وحُسْنُ العمل: الزهدُ فيها، وعدم الاغترار بها، والقناعة باليسير منها، والتأمل في شأنها، وجعلها ذريعة إلى معرفة خالقها، والتمتع بها حسبما أُذِنَ به الشرع، لا اتخاذها وسيلةً إلى الشهوات، والأغراض الفاسدة، كما يفعله الكفرة والفسقة.

﴿وَأَنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾.

﴿وَأَنَّا لَجَاعِلُونَ﴾ فيما سيأتي عند تناهي عمر الدنيا ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ قاطبة من المخلوقات، بإفنائها بالكلية ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي تراباً لا نبات فيه، يقال: أرضٌ جُرُزٌ بضمّين أي يابسة لا نبات فيها أي سنحيلها إلى حطام ورُكام، بعد أن كانت بهجة وزينة، حتى تصبح كالأرض الجرداء التي لا نبات فيها ولا حياة.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنَّآئِنْتَنَا عَجَبًا﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، والمراد به أمته وقريش، لأنهم تعجبوا من قصتهم وسألوا عنها الرسول ﷺ و «أَمْ» منقطعة، مقدّرة بـ «بل» التي هي للانتقال من حديث إلى حديث، أي بل أحسبت؟ ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا﴾ في عيشهم وحياتهم المدة الطويلة من الزمن ﴿مِنَّآئِنْتَنَا﴾ من بين آياتنا ﴿عَجَبًا﴾ أي آية ذات عجب، والمعنى إن قصتهم وإن كانت خارقة للعادة، ليست بعجب بالنسبة إلى سائر الآيات، فإن آياتنا كلها عجب، فإن من قدر على تخليق السماوات والأرض، ثم تزيين الأرض بأنواع المعادن، والحيوانات، والنباتات، ثم جعلها صعيداً جُرُزاً، كيف يُستبعد عن قدرته، حفظُ فتية من الناس مدةً من الزمن في النوم؟ والكهف: الغارُ الواسع في الجبل، والرقيم: هو لوحُ رصاص، أو حجر، رُقمت فيه أسماؤهم.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

﴿إِذْ أَوَى﴾ أي اذكر حين التجأ ﴿الْفِتْيَةُ﴾ أي أصحاب الكهف، أوثر

الإظهار لتحقيق ما كانوا عليه في أنفسهم من حال الفتوة، فإنهم كانوا فتية من أشراف الروم، أراد «دقيانوس» أن يجبرهم على الشرك، فهربوا منه فراراً بدينهم ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ بجبلهم واتخذوه مأوى ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ﴾ من خزائن رحمتك ﴿رَحْمَةً﴾ خاصة تستوجب المغفرة، والرزق، والأمن من الأعداء ﴿وَهَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي نحن عليه من مهاجرة الكفار، والمثابرة على طاعتك، وأصل التهيئة إحداث هيئة الشيء، أي أصلح ورثب وأتمم لنا من أمرنا ﴿رَشَدًا﴾ إصابة للطريق الموصل إلى المطلوب، والاهتداء إليه.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ أي ضربنا عليها حجاباً من النوم، يعني أنماهم إنامة ثقيلة، والضرب على الآذان كناية عن الإنامة الثقيلة ﴿فِي الْكَهْفِ﴾ ظرف مكان لضربنا ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي ذات عدد ووصفُ السنين بذلك للتكثير، لإظهار كمال القدرة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي أيقظناهم من تلك النَّوْمَةِ الثقيلة، الشبيهة بالموت ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي بعثناهم ليحصل هذا العلم لبعض الخلق، أو هو مجاز عن الاختبار، فالمعنى: بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم ﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ أي الفريقين المختلفين منهم في مدة لبثهم، قال الفراء: (الحزبين) الطائفتين من المسلمين، في زمن أصحاب الكهف، وقال مجاهد: الحزبان من الفتية لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ الآية ﴿أَحْصَىٰ﴾ أي أضبط ﴿لِمَا لَبِثُوا﴾ أي للبثهم ومكثهم ﴿أَمَدًا﴾ أي غاية ليتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم، من حفظ أبدانهم فيزدادوا يقيناً بكمال قدرته وعلمه، والأمد: بمعنى المدى أي المدة من الزمن.

﴿ تَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ نَبَاهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَهُمْ هُدًى ﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿ تَحْنُ نَقْصُ ﴾ شروع في تفصيل القصة، أي نحن نخبرك بتفاصيل أحوالهم ﴿عَلَيْكَ نَبَاهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق، ذكر محمد بن إسحق، أنه قد مرج أهل الإنجيل، وعظمت فيهم الخطايا، ملوكهم، فعبدوا الأصنام، وذبحوا للطواغيت، وكان ممن بالغ فيه «دقيانوس» فإنه غلا غلواً شديداً، وخالف من خالفه من المتمسكين بدين المسيح عليه السلام، فلما رأى الفتية ذلك وكانوا أبناء عظماء أهل مدينتهم، قاموا فتضرعوا إلى الله تعالى، واشتغلوا بالصلاة والدعاء، فبينما هم كذلك، إذ دخل عليهم أعوان الجبار فأحضرهم بين يديه، فقال لهم ما قال، وخيّرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان فقالوا: إن لنا إلهاً، لن ندعو من دونه أحداً، فأمر بنزع ما عليهم من الثياب الفاخرة، وخرج هو إلى «نينوى» لبعض شأنه، وأمهلهم ليتأملوا في أمرهم فإن تبعوه وإلا فعل ما فعل بسائر المسلمين، فأزمت الفتية على الفرار بالدين، والالتجاء إلى الكهف الحصين، فأخذ كل منهم من بيت أبيه شيئاً وتزودوا فأووا إلى الكهف فجعلوا يصلّون فيه آناء الليل وأطراف النهار، فضرب الله على آذانهم فناموا، فخرج دقيانوس في طلبهم بخيله ورجله، فوجدوهم قد دخلوا الكهف، فأمر بإخراجهم فلم يطق أحد أن يدخله، فلما ضاق بهم ذرعاً قال قائل منهم: ابن عليهم باب الكهف، ودعهم يموتوا جوعاً ففعل، ثم كان من شأنهم ما قصّ الله عزّ وجلّ ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي إنهم شباب مؤمنون، صادقون في إيمانهم، صامدون في وجه الطغيان ﴿وَزِدْنَهُمْ هُدًى﴾ بأن ثبتناهم على ما هم عليه من الدين.

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي قويناها حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الأهل، والأوطان، والنعم والإخوان، والرد على الجبار ﴿إِذْ قَامُوا﴾ بين يدي الجبار من غير مبالاة به، حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ضَمَّنُوا دَعْوَاهُمْ ما يحقق فحواها، ويقتضي بمقتضاها، فإن ربوبيته عز وجل تقتضي ربوبيته لما فيهما ﴿لَنْ نَدْعُو﴾ لن نعبد أبداً ﴿مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ معبوداً آخر ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ أي قولاً خارجاً عن حد العقول، مفرطاً في الظلم، يقال: شَطَّت الدارُ: بَعُدَتْ، وشَطَّ فلان في حكمه: جَارَ وظلم.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوَلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا﴾ في اسم الإشارة تحقير لهم ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ فيه معنى الإنكار، ودلالة على أن قومهم كانوا من عبدة الأصنام ﴿لَّوَلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ﴾ أي هلاً يأتون على ألوهية الأصنام ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ بحجة ظاهرة الدلالة على مدعاهم، وهو تبكيث لهم ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك إليه أي أنه أظلم من كل ظالم.

﴿وَإِذْ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾.

﴿وَإِذْ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ﴾ أي وإذ اعتزلتم أيها الفتية قومكم وفارقتهم في الاعتقاد ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي اعتزلتموهم ومعبودهم ﴿فَأَوْوُوا﴾ أي التجئوا ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ واجعلوا الكهف مأواكم ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ﴾ أي ييسط لكم، ويوسع عليكم ﴿رَبُّكُمْ﴾ مالك أمركم ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ في الدارين ﴿وَيَهَيِّئْ لَكُمْ﴾ يسهل لكم ﴿مِنْ أَمْرِكُمْ﴾ الذي أنتم بصددته من الفرار بالدين

﴿مَرْفَقًا﴾ ما ترتفقون وتتفقون. به، إنما قالوا ذلك ثقة بفضل الله، ولقوة رجائهم، لتوكلهم عليه تعالى.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (١٧).

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ﴾ بيان لحالهم بعدما أَوَّوا إلى الكهف، والخطاب للرسول ﷺ أو لمن يصلح للخطاب ﴿إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ﴾ تتراور وتتنحى، من الزَّور وهو الميل ﴿عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ أي تميل عنه، ولا يقع شعاعها عليهم، والمقصود بيان أنه تعالى صان أصحاب الكهف، من أن يقع عليهم ضوء الشمس، لئلا تفسد أجسامهم ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي جهة يمين الكهف، عند توجه الداخل إلى داخله ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ﴾ أي تراها عند غروبها ﴿تَقَرُّضُهُمْ﴾ أي تقطعهم ولا تقربهم ﴿ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي جهة شمال الكهف، أي الجانب الذي يلي المشرق، وكان ذلك بتصريف الله تعالى، على منهاج خرق العادة كرامة لهم ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ جملة حالية مبينة لكون ذلك أمراً بديعاً أي تراها تميل يميناً وشمالاً، ولا تحوم حولهم مع أنهم في متسع من الكهف، معرَّض لإصابتها، لولا أن صرفتها عنهم يد القدرة ﴿ذَلِكَ﴾ أي ما صنع الله بهم ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ العجيبة، الدالة على كمال علمه وقدرته ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ أي من يهده الله إلى الحق، فهو المهتدي الذي أصاب الفلاح، والمراد التنبيه على أن أمثال هذه الآيات كثيرة، ولكن المتنتفع بها من وفقه الله تعالى للاستبصار بها ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ﴾ يخلق فيه الضلال، لصرف اختياره إليه ﴿فَلَنْ يَجِدَ لَهُ﴾ أبداً وإن بالغت في النظر ﴿وَلِيًّا﴾ أي ناصرأ ﴿مُرْشِدًا﴾ يهديه إلى ما ذكر من الفلاح، لاستحالة وجوده في نفسه.

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ آيَةً كَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَسِيطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا ﴾ (١٨).

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ ﴾ أي تظنهم أيها الناظر ﴿ آيَةً كَاطًا ﴾ جمع يَقِظُ، وهو اليقظان الذي لم ينم، لانفتاح عيونهم على هيئة الناظر ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ أي نيام، مستغرقون في نومهم ﴿ وَنُقِلَبُهُمْ ﴾ في رقدتهم ﴿ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ أي جهة تلي أيماهم ﴿ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ أي جهة تلي شمائلهم، كيلا تأكل الأرض ما يليها من أبدانهم ﴿ وَكَلْبُهُمْ ﴾ هو كلب راع قد تبعهم ﴿ بَسِيطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ أي بموضع الباب من الكهف ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي لو عايتهم، وأصل الاطلاع، الإشراف على الشيء بالمعاينة والمشاهدة ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ هرباً مما شاهدت منهم ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا ﴾ أي خوفاً يملأ الصدر ويرعبه من الهيئة، وقيل إن الله تعالى منعهم بالربع لثلاث يراهم أحد، قال ابن عباس: غزونا مع معاوية نحو الروم، فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف، فقال معاوية: لو كشف الله لنا عن هؤلاء لنظرنا!! فقال ابن عباس: قد منع عن ذلك من هو خير منك يعني رسول الله ﷺ.

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ (١٩).

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أي كما أنماهم وحفظنا أجسادهم من البلى، آية دالة على كمال قدرتنا، بعثناهم من النوم ﴿ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ أي ليسأل بعضهم بعضاً، ويعرفوا حالهم، وما صنع الله بهم، فيزدادوا يقيناً، على كمال قدرة الله تعالى ويستبصروا به أمر البعث، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ هو رئيسهم ﴿كَمْ لَيْتُمْ﴾؟ في منامكم في هذا الكهف؟ ﴿قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بناءً على غالب ظنهم، لأن النائم لا يحصى مدة ليله، ولذلك أحالوا العلم إلى الله تعالى ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْتُمْ﴾ أي أنتم لا تعلمون مدة لبثكم، وإنما يعلمها الله تعالى، وهذا رد منهم بأجمل ما يكون، من مراعاة حسن الأدب ﴿فَأَبَعَثُوا أَحَدَكُمْ﴾ قالوه إعراضاً عن التعمق في البحث، وإقبالاً على ما يهمهم حيث شعروا بالجوع الشديد ﴿يُورِقُكُمْ هَذِهِ﴾ الورق: الفضة مضروبة أو غير مضروبة، أي أرسلوا واحداً منكم إلى المدينة بهذه النقود الفضية ليشتري بها قوتاً لنا، وفيه دليل على أن التزود لا ينافي التوكل ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ قيل: المدينة «طرسوس» واسمها قبل الإسلام أفسوس ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ أي أحلّ وأطيب، وأرخص وأجود ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ أي من ذلك الطعام ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وليتكلف اللطف في المعاملة وفي الاستخفاء لئلا يعرف ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ أي لا يعلمن ﴿بِكُمْ أَحَدًا﴾ من أهل المدينة، فإنه يستدعي الشعور بنا، والقبض علينا

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي ليبالغ في عدم الإشعار لأنهم ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي إن يظفروا بكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي يقتلوكم إن ثبتم على ما أنتم عليه ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي يدخلوكم فيها كرهاً ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا﴾ أي إن دخلتم فيها ولو بالكره، لن تفوزوا بخير ﴿أَبَدًا﴾ لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

﴿وَكَذَلِكَ أَغَتْْنَا عَلَيْهِمْ لِعِلْمِمْ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي كما أنماهم وبعثناهم ليزداد يقينهم ﴿أَغَتْْنَا﴾ أي

أطلعنا الناس ﴿عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا﴾ بما عاينوا من أحوالهم ﴿أَنْتَ وَعَدَ اللَّهُ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿حَقٌّ﴾ صادق لا مردّ له، لأن نومهم وانتباههم، كحال من يموت ثم يبعث ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَأَرْيَبَ فِيهَا﴾ لا شك في قيام القيامة، فإن من شاهد أنه جلّ وعلا توفّى نفوسهم، وأمسكها ثلاثمائة سنة وأكثر، حافظاً أبدانها من التحلل والتفتت، لا يبقى له شائبة شك، في أن وعده حق، وأنه يبعث من في القبور ﴿إِذْ يَنْزَعُونَ﴾ ظرف لقوله ﴿أَعْرَضْنَا﴾ قدّم عليه ذكر الساعة لكمال العناية بذكرها، أي أطلعناهم عليهم حين يتنازعون ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ﴾ ليرتفع الخلاف، ويتبيّن الحق، في أمر البعث فمن مقرّ به، وجاحد له، روي أن المبعوث لمّا دخل المدينة، أخرج الدرهم ليشتري به الطعام، فاتهموه بأنه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك، فقصّ عليه القصة فقال بعضهم: إنّ آبائنا أخبرونا بأن فتية فروا بدينهم من دقيانوس، فلعلهم هؤلاء، فانطلق الملك وأهل المدينة، ولما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى: مكانكم حتى أدخل أولاً، لثلا يفزعوا، فدخل فغمّي عليهم المدخل، فبنوا ثمة مسجداً ﴿فَقَالُوا﴾ الفاء فصيحة، أي أعرضنا عليهم فرأوا ما رأوا فماتوا، فقالوا أي قال بعض الناس ﴿أَبْتُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي على باب الكهف ﴿بُنَيْنًا﴾ لثلا يتطرق إليهم الناس ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ من كلام المتنازعين، كأنهم لما رأوا عدم اهتدائهم إلى حقيقة حالهم، من حيث النسب، ومن حيث العدد، ومن حيث اللبث في الكهف، قالوا ذلك، تفويضاً للأمر إلى علام الغيوب، أي الله أعلم بحالهم وشأنهم ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ وهم الملك والمسلمون ﴿لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ يصلي فيه المسلمون.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

﴿سَيَقُولُونَ﴾ الضميرُ في الأفعال الثلاثة للخائضين، أي سيقول هؤلاء القوم، الخائضون في قصتهم ﴿ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي هم ثلاثة أشخاص، ويصبحون أربعة بانضمام الكلب إليهم ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي ويقول البعض: إنهم خمسة سادسهم الكلب ﴿رَجَمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي رمياً بالخبر الخفي الذي لا مطلع عليه، وبالظن من غير يقين ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي ويقول البعض إنهم سبعة أشخاص، والثامن هو كلبهم الذي صاحبهم للحراسة ولعل هذا القول هو الأقرب للصواب، لأن ما فيه يرشد إلى ذلك، من عدم نظمه في سلك الرجم بالغيب، ﴿قُلْ﴾ تحقيقاً للحق ورداً على الأولين ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بَعْدَتِهِمْ﴾ أي أعلم بعددهم ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي لا يعلم على وجه الضبط إلا عدد من الناس، قد وفقهم الله تعالى، قال ابنُ عباس: حين وقعت الواو^(١) انقطعت العِدَّةُ، وعليه مدار قوله رضي الله عنه: أنا من ذلك القليل^(٢) ﴿فَلَا تُمَارَ﴾ أي إذا عرفت ذلك فلا تجادلهم يعني أهل الكتاب في شأن الفتية ﴿إِلَّا مِرَّةً ظَهَرَ﴾ أي إلا قدر ما تعرّض له الوحي، وهو أن نقص عليهم ما في القرآن، من غير التجهيل لهم، والردّ عليهم ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ﴾ أي في شأنهم ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من الخائضين ﴿أَحَدًا﴾ فإن فيما قصَّ الله عليك لمندوحة عن ذلك، وما ذكر من الشواهد لإرشاد المؤمنين إلى صحة القول الثالث، والمعنى حينئذ: وإن وقفت على أن كلهم ليسوا

(١) الواو زائدة، وقيل: مستأنفة، قال الزمخشري: «هي الواو التي تدخل على الجملة التي وقعت صفةً للنكرة»، تقول: جاءني رجلٌ ومعه آخر.

(٢) يريد ابن عباس رضي الله عنه أن عددهم كان سبعة، وقد عرفهم بالفهم الثاقب قال: كانوا سبعة فإن الله عدّهم حتى انتهى إلى السبعة، ولما ذكر القول الأول والثاني، أردفه بقوله: ﴿رَجَمًا بِالْغَيْبِ﴾ ولما ذكر القول الأخير لم يقدح فيه بشيء، فكأنه أقرّ قائله، ثم وجود الواو ﴿وِثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ يدل عليه ولم تذكر الواو في القولين السابقين فتنبه رعاك الله.

على خطأ في ذلك، فلا تجادلهم إلا جدالاً ظاهراً. واختلف الناس في زمان أصحاب الكهف، وفي مكانهم، فقليل: إنهم كانوا قبل موسى عليه السلام، وقيل إنهم دخلوا الكهف قبل المسيح، ثم بعثوا بين عيسى وبين الرسول ﷺ، وقيل: دخلوا الكهف بعد المسيح، أمّا مكان هذا الكهف، ففيه روايات.

أقول: العلمُ بذلك الزمان، وبذلك المكان، ليس للعقل فيه مجال، وإنما يستفاد ذلك من نصّ في الكتاب أو السنة، وذلك مفقود، فلا سبيل إليه، فنكتفي بما ورد في القرآن، من خبر هؤلاء الفتية المؤمنين.

﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾.

﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ الشيء ﴿غَدًا﴾ أي فيما يُستقبل، فيدخل الغد دخولاً أولياً، فإنه نزل حين قالت اليهود لقريش: «سألوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، فسألوه فقال ﷺ: اتنوني غداً أخبركم، ولم يستثن، فأبطأ عليه الوحي، حتى شقَّ عليه، وكذبتة قريش» هكذا قال المفسرون.

وقيل: من البعيد أن يعد رسولُ الله ﷺ ولم يقل فيه إن شاء الله، بل هذا تهيج وتنبية للمسلمين.

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشْدًا﴾.

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء مفرغ من النهي أي لا تقولن في حال من الأحوال إلا حالة ملاسته بمشيئة الله تعالى، على الوجه المعتاد، وهو أن يقال: إن شاء الله ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ﴾ بقولك إن شاء الله متداركاً له ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ أي إذا فرط منك نسيانٌ ثم ذكرته، ولو بعد مدة من الزمان. قال

القرطبي: «وهذا في تدارك التبرك، والتخلص من الإثم، وأما الاستثناء المغيّر للحكم، فلا يكون إلا متصلاً، ويجوز أن يكون المعنى: واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت مبالغة في الحث عليه، أو اذكره إذا اعتراك النسيان ليذكر المنسي ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَا رَبِّي لِقُرْبٍ مِنْ هَذَا﴾ أي لشيء أقرب وأظهر من نأ أصحاب الكهف، من الآيات والدلائل الدالة على نبوتي ﴿رَشْدًا﴾ أي إرشاداً للناس، حيث آتاه من البينات ما هو أعظم من ذلك وأبين.

﴿وَلِئَلَّا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ ﴿٢٥﴾.

﴿وَلِئَلَّا فِي كَهْفِهِمْ﴾ أحياء نياماً مضروباً على آذانهم ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ وهو بيان لما أجمل في قوله في الكهف سنين عدداً، أي بقوا ماكثين في الكهف نياماً، ثلاثمائة وتسع سنين، حتى بعثهم الله من النوم، وأطلع الناس عليهم، ليتيقنوا قدرة الله على البعث^(١).

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمَعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ ﴿٢٦﴾.

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ يعني إن نازعوك في مدة لبثهم، فقل أنت: الله أعلم بما لبثوا؟ وقد أخبر بمدة لبثهم وهي ثلاثمائة وتسع سنين ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلها ﴿أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمَعُ﴾ معناه ما أبصره بكل موجود، وما أسمعاه؟ دلّ بصيغته التعجب، على أن شأن علمه سبحانه، خارج عما عليه إدراك البشر، لا يحجبه شيء ولا يتفاوت بالنسبة إليه اللطيف والكثير، والخفي والجلّي

(١) انظر أسباب النزول للواحدي، ومختصر تفسير ابن كثير ٤٠٨/٢ فقد ذكرت فيه الرواية مطوّلة.

﴿ مَا لَهُمْ ﴾ أي لأهل السماوات والأرض ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ تعالى ﴿ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يتولى أمورهم وينصرهم ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ ﴾ في قضائه أو في علم الغيب ﴿ أَحَدًا ﴾ منهم، ولا يجعل له فيه مدخلًا.

﴿ وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ .

﴿ وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ أي من القرآن الكريم وقوله: ﴿ أَتْلُ ﴾ يتناول القراءة ويتناول الاتباع، فالمعنى: الزم قراءة الكتاب، والزم العمل به ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ أي لا قادر على تبديله ﴿ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أبد الدهر ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ أي ملجأ تعدل إليه، عند الإمام مُلَمَّة أو في البيان والرشاد.

﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ .

﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ أي احبسها وثبتها مصاحبة ﴿ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ دائبين على الدعاء في جميع الأوقات وفي طرفي النهار ﴿ بِالْغَدَاةِ ﴾ أي بالصباح لطلب التوفيق والتيسير ﴿ وَالْعَشِيِّ ﴾ أي المساء لطلب عفو التقصير، والمراد بهم فقراء المؤمنين، مثل صهيب، وعمار، ونحوهما وقيل: أصحاب الصُّفَّة، وكانوا سبع مائة رجل في مسجد رسول الله ﷺ، لا يرجعون إلى تجارة، ولا إلى زرع، ولا ضَرْع، يصلون صلاةً وينتظرون أخرى، فلما نزلت الآية قال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي جعل من أمتي، مَنْ أُمِرْتُ أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ»^(١) وروي أن قوماً من رؤساء الكفرة قالوا

(١) أخرجه الطبراني، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٤١٦/٢.

لرسول الله ﷺ: نَحْ هَؤُلَاءِ الْمَوَالِي، الَّذِينَ رِيحُهُمْ رِيحُ الضَّانِ، حَتَّى نَجَالِسَكَ، كَمَا قَالَ قَوْمُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ ﴿يُرِيدُونَ﴾ بِدَعَائِهِمْ ذَلِكَ ﴿وَجَهَهُ﴾ أَيُّ مَرِيدِينَ رِضَاهُ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أَيُّ لَا يَجَاوِزُهُمْ نَظْرُكَ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَالْمُرَادُ نَهْيُهُ ﷺ عَنْ الْإِزْدِرَاءِ بِهِمْ لِرِثَاثَةِ زِيهِمْ، طَمُوحاً إِلَى زِيِّ الْأَغْنِيَاءِ ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَيُّ تَطْلُبُ مَجَالِسَةَ الْأَشْرَافِ وَالْأَغْنِيَاءِ وَصَحْبَةَ أَهْلِ الدُّنْيَا ﴿وَلَا تُطِيعْ﴾ فِي تَنْحِيَةِ الْفُقَرَاءِ عَنْ مَجَالِسِكَ ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ أَيُّ جَعَلْنَاهُ غَافِلاً لِبُطْلَانِ اسْتِعْدَادِهِ لِلذِّكْرِ ﴿عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أَيُّ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ عَلَى خِلَافِ مَا عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ، مِنَ الدُّعَاءِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، وَفِيهِ تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الدَّاعِيَ لَهُ إِلَى هَذَا الطَّلَبِ، غَفْلَةُ قَلْبِهِ عَنِ الْمَعْنَوِيَّاتِ، وَانْهَمَاكِهِ فِي الْمَحْسُوسَاتِ، حَتَّى خَفِيَ عَلَيْهِ أَنَّ الشَّرَفَ بِحَلِيَةِ النَّفْسِ، لَا بِزِينَةِ الْجَسَدِ ﴿وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ أَيُّ ضَيَاعاً وَهَلَاكاً وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾^(١) فَفِي تِلْكَ نَهْيٌ عَنْ طَرْدِهِمْ، وَفِي هَذِهِ أَمْرٌ بِمَجَالَسَتِهِمْ.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَيُّ مَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَيُّ إِنْ مَا أُوحِيَ إِلَيَّ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَإِنْ ذَلِكَ الْحَقُّ مِنْ جِهَةِ رَبِّكُمْ ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ أَيُّ فَمَنْ شَاءَ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ فَلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يَكْفُرَ بِهِ فَلْيَفْعَلْ، حَيْثُ جَاءَ الْحَقُّ، وَزَاحَتِ الْعِلَلُ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا اخْتِيَارُكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ مَا شِئْتُمْ، وَفِيهِ مِنَ التَّهْدِيدِ، وَعَدَمِ الْمُبَالَاهِ بِهِمْ، وَبِإِيمَانِهِمْ وَجُوداً وَعَدَمًا مَا لَا يَخْفَى.

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٢.

ثم ذكر جزاء من اختار الكفر فقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أي هيئنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ للكافرين بالحق، والتعبير عنهم بالظالمين للتنبيه على أن اختيار الكفر، تجاوز عن الحد، ووضع للشيء في غير موضعه ﴿نَارًا﴾ عظيمة عجيبة ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي حاطها وسورها، شبه به ما يحيط بهم من النار بالسور، والسرادق هو ما يدار حول الخيمة وقيل دخانها ﴿وَلِإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ من العطش ﴿يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَأَلْمُهْلِ﴾ كالحديد والنحاس المذاب أو كعكر الزيت المحمي ﴿يَشْوَى الْوُجُوهَ﴾ إذا قُدِّمَ ليشرب من فرط حرارته ﴿يَنْسُكُ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي بشئ ذلك الشراب الذي يغاثون به، وساءت جهنم منزلاً ومأوى يرتفق به أهل الجحيم!! وقوله تعالى: ﴿مُرْتَفَقًا﴾ أي موضعاً للاستراحة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (٣٠).

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بيان من اختار الإيمان كأنه قيل: والذين آمنوا بالحق الذي أوحى إليك ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أي لا نترك أعمالهم تذهب ضياعاً، بل نجزيهم عليها أفضل الجزاء.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِفِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٣١).

﴿أُولَئِكَ﴾ المنعوتون ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ التنكير للتفخيم جمع أسورة، وهي جمع سوار ﴿مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ خصت الخضرة بثيابهم، لأنها أحسن الألوان، وأكثرها طراوة ﴿مِنْ سُنْدُسٍ﴾ هو الديباج الرقيق، وقيل: المنسوج بالذهب ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ هو

الدباج الصفيق الغليظ، جمع بين النوعين، للدلالة على أن فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿مُتَكِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ جمع أريكة وهي السرر في الحجال، ولا يقال للسرير وحده أريكة، وخصَّ الاتكاء لأنه هيئة المتنعمين ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ ذلك ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي الأرائك متكاً لهؤلاء المتنعمين.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ (٣٢).

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ﴾ أي للفريقين المؤمن، والكافر ﴿مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ لا من حيث أحوالهما في الآخرة، بل من حيث عصيانُ الكافر، وطاعةُ المؤمن، مع قلب الأول في نعم الله تعالى، ومكابدة الأخير للفقر والضرورة، مثلاً حال رجلين مقدَّرين أو محققين، قيل: هما أخوان من بني إسرائيل، اقتسما ثمانية آلاف دينار، فاشتري الكافر بنصيبه ضياعاً، وعقاراً، وصرف المؤمن نصيبه في وجوه الخير والإحسان، فآل حالهما إلى ما حكاه الله تعالى ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أي بستانين ﴿مِنْ أَعْنَبٍ﴾ من كروم متنوعة ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي جعلنا النخل محيطاً بهما ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ وسطهما ﴿زَرْعًا﴾ ليكون كل واحد منهما جامعاً للأقوات، والفواكه، على الهيئة الرائقة، التي تسرُّ الناظرين.

﴿كِلَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلُهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ (٣٣).

﴿كِلَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلُهَا﴾ ثمرها، وبلغت مبلغاً صالحاً للأكل ﴿وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ﴾ أي ولم تنقص من أكلها ﴿شَيْئًا﴾ كما يُعهد في سائر البساتين، فإن الثمار غالباً تكثر في عام، وتقلُّ في آخر، وكذا بعض الأشجار يأتي بالثمر في بعض الأعوام دون بعض ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا﴾ فيما بين الجنتين ﴿نَهْرًا﴾ على حدة، ليكتمل شربهما، ويزيد بهاؤهما.

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (٣٤).

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ لصاحب الجنتين ثمر أي أنواع مالٍ سوى الجنتين من ثمر ماله، قال ابن عباس رضي الله عنه: الثمر هو جميع المال، وقال مجاهد الذهب والفضة^(١) ﴿فَقَالَ﴾ الكافر ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي يراجعه في الكلام، من حَارَ إذا رجع ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي أعواناً وأولاداً ذكوراً.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (٣٥).

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ التي شرحت أحوالها بصاحبه، يطوف به ويفخر بها ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ ضارٌّ لها بكفره وظلمه ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ أي تفنى ﴿هَذِهِ﴾ أي الجنة ﴿أَبَدًا﴾ لطول أمله، وتمادي غفلته، واغتراره بمهلتها، ولعله إنما قاله بمقابلة موعظة صاحبه وتذكيره، وترى أكثر الأغنياء تنطق السنة أحوالهم بذلك، وإن لم يتلفظوا بذلك.

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ (٣٦).

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي وما أعتقد أن القيامة كائنة فيما سيأتي ﴿وَلَئِن رُّدِدْتُ﴾ بالبعث كما تقول ﴿إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ﴾ يومئذٍ ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ من

(١) الثمر جمع ثمرة وهي المجني من الفاكهة، وإنما ذكر الثمر وإن كانت الجنة لا تخلو منه، للإيذان بكثرة الحاصل في الجنتين، قال ابن كثير ٣٨٤/٢: قيل المراد بالثمر المال، وقيل: الثمار، وهو أظهر ههنا. اهـ.

هذه الجنة ﴿مُنْقَلَبًا﴾ أي مرجعاً وعاقبة، ومدار هذا الطمع، اعتقاد أنه إنما أكرمه الله في الدنيا لاستحقاقه الذاتي، ولم يذر أنه استدراج.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾ (٣٧).

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾؟ أي قال له صاحبه المؤمن وهو يراجعه ويكلمه، ويناقشه الحديث: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ حيث قلت: ما أظن الساعة قائمة، وهذا يدل على أن الشاك في حصول البعث كافر، ثم قال: ﴿بِالَّذِي خَلَقَكَ﴾ أي في ضمن خلق أصلك آدم عليه السلام ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾ فإن خلق آدم عليه السلام منه، متضمن لخلق الإنسان منه ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ هي مادتك القريبة، فالمخلوق واحد، والمبدأ متعدد ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾ أي عدلك وكمالك إنساناً ذكراً!! جعل كفره بالبعث كفراً بالله تعالى، لأن منشأ الشك في كمال قدرته تعالى، ولذا رتب الإنكار على خلقه إياه من التراب.

﴿لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٣٨).

﴿لَيْكِنَّا﴾ أصله «لكن أنا» فحذفت الهمزة، فتلاقت النون فأدغمتا ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ هو ضمير الشأن، وهو استدراك لقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ كأنه قال: أنت كافر ولكني مؤمن، وفيه حذف، أي أقول: هو الله ربي ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ وفيه إيذان بأن كفره بطريق الإشراف.

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنِّيًا أَقَلَّ مِنْكَ مَا لَا وَوَلَدًا﴾ (٣٩).

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾ أي هلاً قلت عندما دخلتها ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي ما شاء الله كائن، والمراد تحضيضه على الاعتراف بأنها وما فيها

بمشيئة الله تعالى، إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي هلاً قلت ذلك اعترافاً بعجزك، وبأن ما تيسر لك من عمارتها وتدير أمرها، إنما هو بمعونة الله تعالى ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ولأجل ذلك تكبرت عليّ وتعظمت.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾ هو جواب الشرط، والمعنى: إن ترني أفقر منك، فأنا أتوقع من صنع الله تعالى، أن يقلب مابي وما بك، فيرزقني لإيماني، ويسلبك نعمته لكفرك ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي على جنتك ﴿حُسْبَانًا﴾ أي عذاباً ﴿مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي أرضاً ملساء يزلق عليها القدم.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا﴾ أي غائراً في الأرض، أطلق المصدر عليه مبالغة ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ﴾ أبداً ﴿لَهُ﴾ للماء الغائر ﴿طَلَبًا﴾ أي لا تستطيع طلبه فضلاً عن وجدانه وردّه.

﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ﴾ أي أهلك أمواله المعهودة، وأصله من إحاطة العدو، ثم استعير في كل الإهلاك ﴿فَاصْبَحَ﴾ الكافر ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ ظهراً لبطن، وهو كناية عن الندم به، ﴿عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ والجنة

مهشمة محطمة، قد سقطت سقوفها على جدرانها، فأصبحت خراباً ياباً ﴿وَيَقُولُ﴾ أي ويقول الكافر نادماً على صنيعه ﴿يَلْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ كأنه تذكر موعظة صاحبه، وعلم أنه أتى من قبل شركه.

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِئَةٍ يَصْرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ ﴿٤٣﴾ .

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِئَةٍ﴾ جماعة ﴿يَصْرُونَهُ﴾ يقدرون على نصره بدفع الإهلاك ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فإنه القادر على ذلك وحده ﴿وَمَا كَانَ﴾ في نفسه ﴿مُنْصِرًا﴾ ممتنعاً بقوته عن انتقام الله تعالى، فإن قيل: فقد ندم على الشرك ورغب في التوحيد، فلم قيل: ﴿وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾؟ الجواب: إنما رغب في التوحيد، لأجل حفظ ماله، ولطلب الدنيا، فلهذا ما صار توحيده مقبولاً عند الله تعالى.

﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ ﴿٤٤﴾ .

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام وللوقت الذي يريد الله إظهار كرامة أوليائه، وإذلال أعدائه ﴿الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ أي النصرة له وحده، لا يقدر عليها أحد سواه جلّ وعلا ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي الله خير ثواباً لأوليائه، وخير عاقبة لمن آمن به واعتمد عليه.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ ﴿٤٥﴾ .

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في زهرتها، وسرعة زوالها لثلا يطمثونها بها، ولا يعكفوا عليها، أي بين لهم صفتها العجيبة، التي هي في الغرابة كالمثل ﴿كَمَا﴾ أي هي كماء ﴿أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ أي اشتبك بسببه ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ فالتف وخالط بعضه بعضاً، من كثرته، وتكاثره

﴿فَأَصْبَحَ﴾ ذلك النبات الملتف إثر بهجتها ورفيفها ﴿هَشِيمًا﴾ مهشوماً مكسوراً ﴿نَذَرُوهُ الرِّيحَ﴾ أي تفرقه وتطيره، وليس المشبه به نفس الماء، بل هو الهيئة المنتزعة من الجملة، وهي حالة النبات المنبت بالماء، يكون أخضر وارفاً، ثم هشيماً تطيره الريح، كأن لم يغن بالأمس ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإنشاء والإفناء ﴿مُقَدِّرًا﴾ قادراً على كل شيء، بتكوينه وتنميته وإبطاله، وهكذا الدنيا بهاءً ثم فناء.

﴿أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (٤٦).

﴿أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بيان لشأن ما كانوا يفتخرون به من الدنيا، وتقديم المال على البنين، مع كونهم أعزَّ منه، لعراقته فيما نيط به من الزينة، والإمداد وغير ذلك، والمعنى: إنَّ ما يفتخرون به من المال والبنين شيء يتزين به في الحياة الدنيا، وقد علّم شأنها في سرعة الزوال ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أي أعمال الخير، التي تبقى ثمراتها للإنسان بعد موته من صلاة وصيام، وزكاة وحج، وسائر أعمال الخير، وقيل: «هي سبحانه الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»^(١) ﴿خَيْرٌ﴾ من المال، والبنين ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي في الآخرة، وهو بيان لما تظهر فيه آثار خيريتها ﴿ثَوَابًا﴾ عائدة تعود إلى صاحبها ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ حيث ينال بها صاحبها في الآخرة، كلَّ ما يؤمله في الدنيا.

﴿وَيَوْمَ نُسِِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٤٧).

(١) ورد هذا في حديث أخرجه النسائي والحاكم بلفظ «خذوا جُنتكم - أي وقايتكم - من النار، قولوا: سبحانه الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ﴾ أي اذكر حين نقلعها من أماكنها، ونسيرها في الجو على هيئتها، أو نسيرها أجزاء بعد أن نجعلها هباءً منبثاً والمراد بتذكره تحذير المشركين مما أمامهم من الدواهي ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ﴾ أي جميع جوانبها والخطاب للرسول ﷺ أو لكل أحد ممن يأتي منه الرؤية ﴿بَارِزَةً﴾ أمّا بروز ما تحت الجبال فظاهر، وأما ما عداه فكانت الجبال تحول بينه وبين الناظر، قبل ذلك، فالآن أضحي قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمّاً ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ أي جمعناهم إلى الموقف من كل أوب، وإيثار صيغة الماضي للدلالة على تحقق الحشر، المتفرع على البعث، الذي ينكره المنكرون، وعليه يدور أمر الجزاء ﴿فَلَمْ نَغَادِرْ﴾ أي لم نترك ﴿مِنْهُمْ أَحَداً﴾ يقال غادره إذا تركه، ومنه الغدر لترك الوفاء.

﴿وَعَرِضْهُ عَلَى رَيْكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً﴾ ﴿٤٨﴾ .

﴿وَعَرِضْهُ عَلَى رَيْكَ﴾ شبهت حالهم بحال جُنْدٍ عُرِضُوا عَلَى السُّلْطَانِ، لا يعرفهم، بل ليأمر فيهم بما يأمر ﴿صَفّاً﴾ مصطفين لا يحجب أحداً أحداً والمراد بقوله: ﴿صَفّاً﴾ أي صفوفاً كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أي أطفالاً، أي غير مختلطين ولا متفرقين ولا تعرض فيه لوحدة الصف وتعدده، ثم يقال لهم ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حفاة، عراة، غُرلاً أو ما معكم شيء مما تفتخرون به من الأموال والأنصار، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ (١) ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً﴾ إضرابٌ وانتقال من كلام إلى كلام كلاهما للتوبيخ، أي زعمتم في الدنيا أنه لن نجعل لكم أبداً وقتاً ننجز فيه ما وعدناه من البعث!! عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت

(١) سورة الأنعام، آية: ٩٤.

رسول الله ﷺ يقول: «يُحْشَرُ النَّاسُ حُفَاةً، عُرَاةً، غُرْلًا، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ جَمِيعًا؟ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ قَالَ: الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهَمَّهُمْ ذَلِكَ»^(١).

وفي رواية النسائي: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَيْلَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي وضعت صحائف الأعمال، والمراد بوضعها وضعها بأيدي أصحابها، أو في الميزان ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ قاطبة فيدخل الكفرة فيهم دخولاً أولياً ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من الجرائم والذنوب ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عند وقوفهم على ما في الكتاب ﴿يَوَيْلَنَا﴾ منادين لهلكتهم التي أهلكوها، مستدعين لها ليهلكوا أي يا حسرتنا وهلاكنا ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ﴾ أي أي شيء له ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي حواها وضبطها ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا ﴿حَاضِرًا﴾ مسطوراً عتيداً ﴿وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فيكتب ما لم يعمل من السيئات، أو يزيد في عقابه المستحق.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري ٣٧٨/١١ في الرقاق، ومسلم رقم ٢٨٠٦ في المنافقين.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ كلام مستأنف سيق مساق التعليل كأنه قيل ما له لم يسجد؟ فقيل: كان أصله جنياً ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي خرج عما أمره ربُّه به من السجود، وهو دليل على أنه كان مأموراً بالسجود مع الملائكة، والتعرض لوصف الربوبية لبيان قبح ما فعله، والمراد بتذكير قصته ههنا النكير على المتكبرين، المفتخرين بأنسابهم وأموالهم، المستنكفين عن الانظام في سلك فقراء المؤمنين، ببيان أن ذلك من صنيع إبليس ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ﴾ أي أعقِب علمكم بصدور تلك القبائح منه تتخذونه ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾ أي أولاده وأتباعه، قال قتادة: يتوالدون كما يتوالد بنو آدم، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة..» (١) الحديث ﴿أُولَئِكَ مِنْ دُونِي﴾ أي تستبدلونهم بي فتطيعونهم بدل طاعتي؟ ﴿وَهُمْ﴾ والحال أن إبليس وذريته ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أي أعداء ﴿يَتَسَوَّلُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ أي بئست عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الرحمن، وفي الالتفات إلى الغيبة، مع وضع «الظالمين» موضع الضمير، الإيذان بسخط الله العظيم.

﴿مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذًا لِّلْمُضِلِّينَ عَصِدًا﴾.

﴿مَا أَشْهَدُكُمْ﴾ أي ما أحضرت إبليس وذريته ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حين خلقتهما قبل خلقهم ﴿وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي ولا أشهدت

(١) الحديث رواه مسلم رقم ٢٨١٣ في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، وتتمة الحديث «يجيء أحدهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقتُ بينه وبين امرأته، قال: فيُدينه منه ويقول: نعم أنت».

بعضهم خلق بعض، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ﴿وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ﴾ أي متخذهم، وإنما وضع المظهر ذماً لهم ﴿عَصِدًا﴾ أي أعواناً في شأن الخلق، أو في شأن في شؤوني حتى يتوهم شركتهم معي، وفيه تهكم بهم، وإيدان بركاكة عقولهم، حتى لا يفهموا هذا الأمر الجلي، الذي لا يكاد يشتهه على البله والصبيان، وقيل: الضمير للمشركين، والمعنى: ما أطلعتهم على أسرار التكوين، وما خصصتهم بفضائل لا يحويها غيرهم، حتى يكونوا قدوة للناس، فيؤمنوا بإيمانهم كما يزعمون، فلا يلتفت إلى قولهم، طمعاً في نصرتهم للدين، فإنه لا ينبغي أن اعتضد بالمضلين.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ شُرَكَاءُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ ﴿٥٦﴾ .

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ أي الله عز وجل للكافرين، توبيخاً وتعجيزاً ﴿نَادُوا شُرَكَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شفعائكم، والمراد بهم كل ما عُبد من دونه تعالى وقيل: إبليس وذريته ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي نادوهم للإغاثة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ إذ لا إمكان، لأنهم أوثان وأحجار، لا يسمعون ولا يبصرون، وفي إirاده مع ظهوره، تهكم بهم، وإيدان بحماقتهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ بين الداعين والمدعوين ﴿مَّوْبِقًا﴾ مهلكاً يشتركون فيه، وبَق من باب وعد: هلك والموبق مثل مسجد من البوق وهو الهلاك كقول عمر رضي الله عنه: «لا يكن حُبُّكَ كَلْفًا، ولا بغضُكَ تَلْفًا» ويجوز أن يكون المراد من الشركاء الملائكة، وعزير، وعيسى عليهم السلام، والموبق: البرزخ البعيد، أي جعلنا بينهم أمداً بعيداً، لأنهم في جهنم، وأولئك في الجنة.

﴿وَرَاءَ الْمُجَرِّمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ ﴿٥٧﴾ .

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ أي رأى الكفرة الفجرة نار جهنم تتلظى، ووضع المظهر تصريحاً بإجرامهم بذلك ﴿فَطَنُوا﴾ أي فأيقنوا، والظنُّ ههنا بمعنى اليقين ﴿أَنَّهُمْ مُّوَافِعُوهَا﴾ واقعون فيها الساعة ﴿وَلَمْ يَحْدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي انصرفاً أو مكاناً ينصرفون إليه، لأنها أحاطت بهم من كل جانب.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي كررنا وأوردنا على وجوه كثيرة من النظم ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ﴾ لمصلحتهم ومنفعتهم ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ليتذكروا ويتعظوا بكل نوع من أنواع المعاني البديعة، الداعية إلى الإيمان، التي هي في الغرابة والحسن، واستجلاب النفس كالمثل، وليتلقوه بالقبول فلم يفعلوا ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ﴾ بحسب جبلته ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي أكثر الأشياء التي يأتي منها الجدل، جدل الرجل من باب تعب: إذا اشتدت خصومته، وجادل إذا خاصم، وهو ههنا شدة الخصومة بالباطل، والمعنى: إن جداله أكثر من جدال كل مجادل. روى الشيخان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طَرَفَهُ وفاطمة ليلاً، فقال: أَلَا تصليان؟ فقلتُ يا رسول الله: أنفُسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بَعَثْنَا، فانصرف رسول الله ﷺ حين قلتُ ذلك، ولم يرجع إليَّ شيئاً، ثم سمعته يقول وهو مُوَلٌّ يضرب فخذه بيده: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^(١).

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ أُولَٰئِكَ أَوَّلَٰئِهِمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري في التهجد ٨/٣ ومسلم رقم ٧٧٥ في صلاة المسافرين.

﴿وَمَامَعَ النَّاسَ﴾ أي أهل مكة ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ بأن يؤمنوا بالله ﴿إِذْ جَاءَهُمْ
الْهُدَى﴾ أي سببه وهو الكتاب، والرسول ﷺ ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ عمّا
فرط منهم من أنواع الذنوب، التي من جملتها مجادلتهم للحق بالباطل
﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي إلا طلب سنتنا في إهلاك الأولين، وهو
الاستئصال ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي عياناً من المقابلة وقيل: فجأة،
ومعنى الآية: أنه ما منعهم من الإيمان والاستغفار إلّا طلبهم أن يشاهدوا
العذاب معاناة ومواجهة.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَمُجَدِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخِذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين بالشواب ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾
للكفرة والعصاة بالعقاب ﴿وَمُجَدِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ أي باقتراحات
الآيات مكابرة وعناداً، بعد ظهور المعجزات ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ أي بالجدال
الباطل ﴿الْحَقَّ﴾ أي يزيلوه عن مركزه، ويبطلوه من إحاض القدم وهو
إزلاقها، دحضت الحجة دحضاً من باب نفع بطلت كقولهم للرسول صلوات
الله عليهم ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾
ونحوهما، وهذا يدل على أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يجادلونهم
﴿وَاتَّخِذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ وهو ما يُستهزأ به، أي جعلوا هذه الآيات
موضع استهزاء وسخرية.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا
جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى
فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾؟ وهو القرآن العظيم، والمعنى: لا

أحد أظلم منه ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي لم يتدبرها ولم يتفكرها، ونسي عمله من الكفر والمعاصي، التي من جملتها ما ذكر، من المجادلة بالباطل، والاستهزاء بالحق ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي جعلنا على قلوبهم أغطية تحول دون فهم هذا الكتاب العزيز، والانتفاع بما فيه، كما جعلنا على آذانهم صمماً، يمنعهم أن يسمعه سماع تفهم وانتفاع، بسوء أعمالهم، وعظم جرائمهم، والعجب أن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ..﴾ إلى قوله: ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ..﴾ متمسك للقدرية الذين ينكرون القدر، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ إلى آخر الآية متمسك الجبرية، وقلماً نجد في القرآن آية لأحدهما، إلا ومعها آية للفرق الآخر، وما ذاك إلا امتحان من الله عز وجل، ألقاه على عباده ليميز العلماء الراسخون، من الخاطبين في الآراء خبط عشواء ﴿وَلِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ فلن يكون منهم اهتداء إلى الهدى البتة لغاية ضلالهم، وهذا في أقوام عَلِمَ الله منهم أنهم لا يؤمنون، و﴿إِذَا﴾ جزاء الشرط، وجوابٌ عن سؤال الرسول ﷺ كأنه قال: مالي لا أدعوهم؟ فقل: إن تدعهم الخ فإن حرصه ﷺ على إيمانهم يدل عليه.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ البليغ المغفرة ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ الموصوف بالرحمة وهي الإنعام على الخلق، وفي الآية التنبيه على كثرة الذنوب ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ﴾ لو يريد مؤاخذتهم ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من المعاصي التي من جملتها ما حكى عنهم من مجادلته بالباطل، والاستهزاء بالحق، وعدم المبالاة بما اجترحوا من الموبقات ﴿لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابَ﴾ لاستيجاب أعمالهم لذلك، ولكنه سبحانه يمهلهم ويؤخر عنهم العذاب رحمة بهم ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ أي أجل لهلاكهم وهو يوم القيامة ﴿لَنْ يَجِدُوا﴾ البتة ﴿مِنْ دُونِهِ﴾

مَوِيلًا ﴿ مِنْجَا أَوْ مَلْجَأًا، يُقَالُ: إِذَا نَجَا، وَوَالَ إِلَيْهِ أَيْ التَّجَا إِلَيْهِ،
وَالْمَوِيلُ: الْمَرْجِعُ.

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ أي قرى عاد، وثمود، وأضرابهما ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي وقت ظلمهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أي عَيْنًا لِهَلَاكِهِمْ وَقَتًا مَعِينًا، لا محيد لهم عن ذلك، فلا يَغْتَرُّوا بتأخير العذاب عنهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَنِهِ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَتِلْغَ بِمَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ أي اذكر وقت قوله عليه السلام ﴿لِفَتَنِهِ﴾ وهو يوشع عليه السلام، سُمِّيَ فتاه إذ كان يخدمه ويتعلم منه، ويسمى التلميذ فتى، وأكثر العلماء على أن المذكور في هذه الآية «موسى بن عمران» صاحب التوراة، وعن كعب الأحمار أنه «موسى بن ميثا» من أولاد يوسف، والأول أصح، لأنه لم يذكر تعالى في كتابه العزيز موسى إلاَّ أراد به صاحب التوراة، أخرج الشيخان عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس رضي الله عنه: إن نوافاً البكالي، يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو «موسى بن عمران» فقال ابن عباس رضي الله عنه كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ، حدثنا أبي بن كعب، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى عليه السلام، قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه، إذ لم يردِّ العلم إليه تعالى، فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه، إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قال موسى يا رب: فكيف لي به؟ قال: فخذ معك حوتاً فاجعله في مكث، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّةٌ، فأخذ حوتاً فجعله في مكث، ثم انطلق وانطلق معه فتاه

يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما، فاضطرب الحوت في المكنل، فخرج منه فسقط في البحر، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت وانطلقا..»^(١) الحديث ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ أي لا أزال أسير ﴿حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ وهو المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام، قيل هو ملتقى بحر فارس والروم، مما يلي المشرق، وقيل: طنجة ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أو أسير زماناً طويلاً.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا ﴾ أي مجمع البحرين ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ الذي جعل فقدانه أمانة وجدان المطلوب، أي نسيا تفقد أمره، روي أنهما لما بلغا مجمع البحرين، وفيه الصخرة ناما، فاستيقظ يوشع عليه السلام، وتوضأ من تلك العين، فنضح الماء على الحوت فعاش، فوقع في الماء ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ مسلماً كالسرب، وهو النَّقَق.

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَإِنَّا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ مجمع البحرين وسارا الليلة والغد إلى الظهر، وألقي على موسى عليه السلام الجوع فعند ذلك ﴿ قَالَ لِفَتْنِهِ ءَإِنَّا غَدَاءَنَا ﴾ أي ما نتغذى به، وهو الحوت كما ينبىء عنه الجواب ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا ﴾ إشارة إلى ما سارا بعد مجاوزة الموعد ﴿ نَصَبًا ﴾ تعباً وإعياء.

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٤٠٩/٨ ومسلم رقم ٢٣٨٠ والترمذي رقم ٣١٤٨.

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۝١٣ ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ فتاه ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ﴾ أي التجأنا وأقمنا عندها وذكر الإيواء إلى الصخرة، مع أن المذكور فيما سبق بلوغ مجمع البحرين، لزيادة تعيين محل الحادثة، ولتمهيد العذر فإن الإيواء إليها والنوم عندها، مما يؤدي إلى النسيان عادة، ومراده بالاستفهام تعجب موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان، مع كون ما شاهده من العظام التي لا تكاد تُنسى ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ ﴾ وفيه تأكيد للتعجب أي نسيت أن أذكر لك أمره، وما شاهدته منه من الأمور العجيبة ﴿ وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ ﴾ بوسوسته الشاغلة عن ذلك ﴿ أَن أَذْكُرَهُ ﴾ أي الشيطان أنساني أن أذكره لك ﴿ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ كأنه قيل: حبي واضطرب ووقع في البحر واتخذ سبيله فيه سبيلاً عجباً، وهو كون مسلكه كالطاقة، وأي شيء أعجب من حوت يؤكل منه، ثم صار حياً؟! .

﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ۝١٤ ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي ذكرت من أمر الحوت ﴿ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ أي نطلبه لكونه علامة على غرضنا ومطلوبنا ﴿ فَأَرْتَدَّا ﴾ أي رجعا ﴿ عَلَىٰ آثَارِهِمَا ﴾ أي طريقهما الذي جاءا منه ﴿ قَصَصًا ﴾ أي يتبعان آثارهما حتى أتيا الصخرة .

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَالِيئَهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝١٥ ﴾ .

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا ﴾ التنكير للتفخيم ﴿ مِّنْ عِبَادِنَا ﴾ الإضافة للتشريف،

والجمهورُ على أنه الخضر، والخضر لقب له، روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سُمِّيَ الخضر، لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تَهْتَرُ تحتَه خضراء»^(١) ومعناه أنه جلس على قطعة نبات يابسة، فاخضرت تحتَه كرامة له ﴿ءَايَتُنْهُ رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أي وهبناه نعمة عظيمة، وفضلاً كبيراً رفعنا به قدره، وعلمناه علماً خاصاً من غير واسطة، والعلم الخاص به، هو علم الغيوب.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَبَعَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ﴾ استئناف كأنه قيل: فما جرى بينهما؟ ف قيل: قال موسى ﴿هَلْ أَتَبَعَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي﴾؟ استئذانٌ منه في اتباعه له، على وجه التعلم ﴿مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾؟ أي علماً ذا رشد، ولا ينافي نبوته وكونه صاحب شريعة، أن يتعلم من إنسان آخر، كما لا يبعد أن العالم الكامل، في أكثر العلوم، يجهل بعض الأشياء، فيحتاج في تعلمها إلى من دونه، وهذا أمر معلوم، وتعلمه منه لا ينقص قدره وشرفه، وفيه دليل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم، وإن كان قد بلغ نهايته، وأن يتراجع لمن هو أعلم منه.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾
خُبْرًا ﴿١٨﴾.

﴿قَالَ﴾ أي الخضر ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد، وكأنه مما لا يصح، وعلَّله بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾؟ إيداناً بأنه يتولى أموراً خفية المدار، والرجل الصالح - لا سيما صاحب الشريعة - لا يتمالك أن يشمئزَّ

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم ٣١٥١ وقال: حسن صحيح.

عند مشاهدتها، أي وكيف تصبر على أمرٍ ظاهره منكر، يخالف الشرع، وأنت لا تعلم باطنه؟.

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ ﴿٦٩﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ معك غير منكر عليك ما تفعله ﴿ وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ أي ستجدني صابراً وغير عاصٍ لأمرك.

﴿ قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ ﴿٧٠﴾ .

﴿ قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي ﴾ إذن له في الاتباع بعد الموافقة على الشرط ﴿ فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ ﴾ تشاهده من أفعالي، أي لا تُفَاتِحْنِي بالسؤال عن حكمته، فضلاً عن المناقشة والاعتراض ﴿ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ أي حتى أبتدىء أنا ببيانه لك، وفيه إيذانٌ بأن كل ما يصدر عنه فله حكمة، وغاية حميدة، وفي هذا إرشادٌ لأدب المتعلّم مع العالم.

﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ ﴿٧١﴾ .

﴿ فَأَنْطَلَقَا ﴾ أي موسى والخضر عليهما السلام على الساحل، يطلبان السفينة، وأما يوشع فقد صرفه موسى إلى بني إسرائيل، قيل: إنهما مرّا بسفينة، فكلّما أهلها، فعرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول أي بغير أجره ﴿ حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ أي حتى إذا ركبا في السفينة، وأصبحت في لجة البحر، عمد الخضر إلى بعض ألواح السفينة، فقلع من ألواحها لوحين، فجعل موسى يسدّ الخرق بشيابه ﴿ قَالَ ﴾ موسى له ﴿ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ أَي فَعَلْتَ ﴾ شَيْئًا إِمْرًا ﴿ أَي عَظِيمًا هَائِلًا ﴾ .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (٧٢).

﴿ قَالَ ﴾ الخضر عليه السلام ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ تذكير لما قاله له، متضمنٌ للإنكار، على عدم الوفاء بوعدِهِ.

﴿ قَالَ لَا تَأْخِذْ بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ (٧٣).

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ لَا تَأْخِذْ بِمَا نَسِيتُ ﴾ أي بنسياني أو بالذي نسيته، وهو وصيته، أراد أنه نسي وصيته، ولا مؤاخذه على الناسي، قال ﷺ «كانت الأولى من موسى نسياناً» ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِي ﴾ أي ولا تحملني مشقة ولا تكلفني ﴿ مِنْ أَمْرِي ﴾ وهو اتباعه إياه ﴿ عُسْرًا ﴾ أي لا تعسّر علي متابعتك، ويسرّها عليّ بالإغضاء، وترك اللوم والمؤاخذه.

﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا ﴾ (٧٤).

﴿ فَأَنْطَلَقَا ﴾ أي فقبل عذره، فخرجا من السفينة فانطلقا نحو البرِّ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ أي فقتله فور لقائه، أمسكه الخضر واقتلع رأسه بيده، ثم رماه في الأرض جثة هامدة، وقيل: أضجعه فذبحه بالسكين^(١)، والغلام هو الصبي الذي لم يبلغ سن الرشد، والفاء للدلالة على أنه لما لقيه قتله من غير تردّد، ولذلك ﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿ أَقْتَلْتَنِي بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي طاهرة من الذنوب، لأنها لم تبلغ الحلم، أو أنه لم يره قد أذنب ذنباً يقتضي قتله ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي بغير قتل نفسٍ محرّمة، ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ

(١) القول الأول أصح، لما ورد في الصحيحين من قوله ﷺ «فبينما هما يمشيان على الساحل، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله» أخرجه الشيخان.

شَيْئًا نَكْرًا ﴿٧٥﴾ أي منكرًا فظيعاً لا يمكن السكوت عنه، رُوي عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْحَضِرُ، طُبِعَ كَافِرًا، وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَ أَبُوهُ طَغْيَانًا وَكَفْرًا»^(١).

﴿٧٥﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٦﴾

﴿٧٦﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٧﴾ إنما زيد ﴿لَكَ﴾ لزيادة العتاب على رفض الوصية، وقلة الصبر، حين تكرر منه الاشمئزاز، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قيل له: كيف جاز قتله، وقد ورد النهي عن قتل الولدان؟ قال لسائله: إِنَّ عَلِمْتَ مِنْ حَالِ الْغُلَامِ مَا عَلِمَهُ صَاحِبُ مُوسَى فَلَمْ أَنْ تَقْتُلْهُ.

﴿٧٦﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٧﴾

﴿٧٧﴾ قَالَ ﴿٧٨﴾ موسى عليه السلام ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَحِّبْنِي﴾ أي لا تجعلني صاحبك بعدها ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ حيث خالفتك ثلاث مرات، وهذا كلامٌ نادم شديد الندامة، قاله مع شدة حرصه على المصاحبة، عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى، لَوْلَا أَنَّهُ عَجَلَ لَرَأَى الْعَجَبُ»^(٢).

﴿٧٨﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أُنْيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَابَوُا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٩﴾

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٥٠ وقال: حديث حسن صحيح غريب.
(٢) طرف من حديث أخرجه الشيخان عن أبي بن كعب، وهو حديث طويل وشهير، وانظر فتح الباري ٨/ ٤١١.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ هي أنطاكية، وقيل: برقة، وقيل: هي بلدة في الأندلس ﴿أَسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ روي أنهما طافا في القرية، فاستطعماهم فلم يطعموهما، واستضافاهم، فأبوا أن يضيِّفوهما ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ أي يقارب ويداني أن يسقط، فاستعيرت الإرادة المشاركة، للدلالة على المبالغة في ذلك، والانقضاء: الإسراع في السقوط، ومنه انقضاء الطير والكوكب ﴿فَأَقَامَهُمَا﴾ مَسَّحَ بيده فقام، وقيل: نقضه وبناه، وفي حديث أبي: فقال الخضر بيده هكذا فأقامه ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿لَوْ شِئْتُ لَتَخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ تحريضاً على أخذ الأجرة، أو تعريضاً بأنه فضول، كأنه لما رأى الحرمان، ومساس الحاجة، واشتغاله بما لا يعنيه، لم يتمالك الصبر، و«اتخذ» افتعل من تَخَذَ بمعنى أخذ، كَاتَبَ من تَبَعَ، وليس من أخذ.

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿قَالَ﴾ الخضر عليه السلام ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي هذا الوقت وقت الفراق، حسبما هو الموعود ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ أي سأخبرك وأعلمك، والسينُّ للتأكيد لعدم تراخي التنبئة ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ والمراد من التأويل ههنا المآل والعاقبة، إذ هو المنبأ به، أي سأحدثك عن حكمة هذه الأمور الثلاثة، التي أنكرتها عليّ، ولم تستطع الصبر لأشرحها لك.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ التي خرقتها ﴿فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ﴾ لضعفاء لا يقدرון على مدافعة الظلمة ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ أي يشتغلون في البحر بقصد التكسب من هذه السفينة ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي أجعلها ذات عيب ﴿وَكَانَ

وَرَأَاهُمْ مَلِكٌ ﴿٨٠﴾ أَيُّ أَمَامِهِمْ، وَكَانَ رَجْوُهُمْ عَلَيْهِ لَا مُحَالَةً ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾
صَالِحَةً ﴿غَضَبًا﴾ مِنْ أَصْحَابِهَا.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا
وَكَفْرًا﴾ ﴿٨١﴾.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ الذي قتلته ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ ولم يصرح بكفره،
إشعاراً بعدم الحاجة إلى الذكر، لظهوره ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا﴾ أي خفنا أن
يغشي الوالدين ﴿طُغْيَانًا﴾ عليهما ﴿وَكَفْرًا﴾ بعقوبه وسوء صنيعه، ويُلحق
بهما شرّاً وبلاءً، أو يعذبهما بدائه، ويضلّهما بضلاله، فيرتدا بسببه، وإنما
خشي الخضر منه ذلك، لأنه تعالى أطلعه على سرّ أمره.

﴿فَارْدَنَّا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رِجْمًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾ ﴿٨٢﴾.

﴿فَارْدَنَّا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رِجْمًا﴾ الإبدال رفع الشيء ووضع آخر مكانه، بأن
يرزقهما ﴿خَيْرًا مِنْهُ﴾ أي أن يرزقهما الله ولداً صالحاً خيراً من ذلك الولد
الكافر، وفي الآية دلالة على إرادة وصول الخير إليهما ﴿زَكَاةً﴾ أي طهارة
من الكفر والذنوب والأخلاق الرديئة ﴿وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾ رحمةً وعطفاً على
والديه قيل: أبدلهما الله جارية فزوّجها فولدت له نبياً، فهدى الله على يديه
أمة من الأمم، وقيل: أبدلهما الله بغيلاً مسلماً، ومبنى هذه المسائل، على
أنه متى تعارض ضرران، تُحمّل أهونهما لدفع أعظمهما، الغلام الذي قتل
فرح به أبواه حين وُلد، وحزنا عليه حين قُتل، ولو بقي لكان فيه
هلاكهما، فليرض العبد بقضاء الله تعالى.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا
وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً
مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ﴿٨٣﴾.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ المعهود الذي بنيته ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ هي القرية المذكورة، أي كان الجدار الذي بنيته قد خبيء تحته كنز ثمين ليتيمين في هذه البلدة ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ أي كان تحت ذلك الجدار كنز مدفون من فضة وذهب، روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «كان الكنز ذهباً وفضة»^(١) وما ورد من الذم على كنزهما، في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ الآية لمن لا يؤدي زكاتها، وسائر حقوقهما ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ أي وكان والدهما صالحاً تقياً، فحفظ لهما الكنز لصالح الوالد، وفي الآية تنبيه على أن سعيه في ذلك كان لصالحهما، وهي تدل على أن صلاح الآباء، يفيد العناية بأحوال الأبناء، روي عن الحسين رضي الله عنه أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما: بَمَ حَفِظَ اللَّهُ تَعَالَى مَالَ الْغُلَامَيْنِ؟ قالوا بصلاح أبيهما، قال: فأبي وجدِّي ﷺ خيرٌ منه ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أي فأراد الله بهذا الصنيع، أن يكبروا ويشد عودهما، ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار وفي إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه السلام ﴿رَبِّكَ﴾ تنبيه له على تحتم الانقياد، والاستسلام لإرادته سبحانه، ووجوب الاحتراز عن المناقشة، فيما وقع من الأمور المذكورة ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ من تحت الجدار، ولولا أنني أقمتها لانقض، وخرج الكنز من تحته، وضاع ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي فعلت ما فعلت من الأمور التي شاهدها، رحمة من ربك ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِیْ﴾ أي وما فعلت ما فعلت من خرق السفينة، وقتل الغلام وبناء الجدار، عن رأيي ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى العواقب المنظومة في سلك البيان ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ﴾ أي ما لم تستطع، فحذفت التاء للتخفيف ﴿عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي ما لم تصبر عليه وعارضت فيها قبل أن أخبرك عنها، وفوائد هذه القصة، أن لا يعجب المرء بعلمه، ولا يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه، فلعل فيه سرّاً لا يعرفه،

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٥٢ وقال: هذا حديث غريب.

وأن يداوم على التعليم، ويراعي الأدب في المقال، وقد زلت أقدام قوم من الضلال، في تفضيل الولي على النبي، وهو كفر جلي، حيث قالوا أمر موسى بالتعلم من الخضر، وهو ولي، والجواب أن هذا ابتلاء في حق موسى عليه السلام، ومن المحال أن يكون الولي ولياً بإيمانه بالنبي، ثم يكون النبي دون الولي، ولا غضاضة في طلب موسى زيادة العلم من ذلك الولي الصالح.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ هم اليهود سألو رسول الله عن قصة ذي القرنين، وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرارهم على ذلك، إلى ورود الجواب، وهو ملك مسلم صالح أعطي الملك والحكمة، وأن ملكه بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وهو الذي افتخر به تبع اليماني حيث قال:

قد كَانَ ذُو القرنين جَدِّي مسلماً مَلِكًا علا في الأرض غير مُفْتَدٍ
بلغَ المشارِقَ والمغاربَ يَتَنَغِي أسبابَ أمرٍ من حَكِيمٍ مُرْشِدٍ

قال ابن كثير: والصحيح أنه ما كان نبياً ولا ملكاً، وإنما كان ملكاً عادلاً، داعياً إلى الله تعالى، سائراً في الخلق بالعدل، وكان الخضر على مقدمة جيشه بمنزلة المستشار، واختلف في وجه التسمية، ف قيل: لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها، وقيل كان في رأسه أو في تاجه ما يشبه القرنين، وأما ذو القرنين الثاني، فإنه الإسكندر بن إقليدس المقدوني باني الإسكندرية، كان متأخراً عن الأول بدهر طويل، أكثر من ألفي سنة، وكان الأول عبداً صالحاً، وملكاً عادلاً، والثاني كان كافراً فاسقاً ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾ سأذكر لكم ﴿مِنْهُ﴾ من ذي القرنين ﴿ذِكْرًا﴾ أي نبأ مذكوراً وحيث كان ذلك بطريق الوحي المتلو حكاية عن جهة الله تعالى قيل سأتلوه، والسين للتأكيد لا للاستقبال كما قيل.

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلًا ﴾ ﴿٨٤﴾ .

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ التمكين ههنا الإقدار وتمهيد الأسباب، والمعنى: إنا جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف في الأرض، من حيث التدبير والأسباب، وتسهيل السير في الأرض ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من مهمات ملكه، ومقاصده المتعلقة بسلطانه ﴿ سَبِيلًا ﴾ أي طريقاً يوصله إليه.

﴿ فَأَنْبَغَ سَبِيلًا ﴾ ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَا الْقَرْيَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ ﴿٨٦﴾ .

﴿ فَأَنْبَغَ سَبِيلًا ﴾ أي سلك طريقاً يوصله إلى مقصوده، ومشى باتجاه الغرب.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ أي منتهى الأرض من جهة المغرب، بحيث لا يتمكن أحد عن مجاوزته، ووقف على حافة البحر المحيط الغربي، الذي يقال له أوقيانوس - ﴿ وَجَدَهَا ﴾ الشمس ﴿ تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أي ذات حمأة، وهي الطين الأسود أي ذات حمأة، ولعله بلغ ساحل المحيط، فرآها كذلك، إذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء، ولذلك قال تعالى ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ ﴾ ولم يقل: «كانت تغرب» كما أن راكب البحر، يرى الشمس تغيب في البحر ﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا ﴾ أي عند تلك العين ﴿ قَوْمًا ﴾ قيل كان لباسهم جلود الوحوش، وطعامهم ما لفظه البحر، وكانوا كفاراً فخيرهم الله عز وجل بين التعذيب، والتعليم ﴿ قُلْنَا يَذَا الْقَرْيَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ ﴾ بالقتل ﴿ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ أي أمراً ذا حسن، وذلك بالدعوة إلى الإسلام، والإرشاد إلى الشرائع.

﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ﴾ ﴿٨٧﴾ .

﴿قَالَ﴾ أي ذو القرنين لمن عنده، بعدما تلقى أمره تعالى ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ نفسه ولم يقبل دعوتي، وأصرَّ على ما كان عليه من الظلم العظيم وهو الشرك ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ - بالقتل - ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُ﴾ - فيها - ﴿عَذَابًا مُّكْرًا﴾ أي عذاباً منكرًا، لم يُعهد مثله وهو عذاب النار، وفيه دلالة على أن الخطاب لم يكن بطريق الوحي إليه، وإنما كان بالإلهام.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾
ثُمَّ أَنْبَأَ سَبِيًّا ﴿٨٩﴾ .

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ بموجب دعوتي ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ حسبما يقتضيه الإيمان ﴿فَلَهُ﴾ في الدارين ﴿جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي فله مثوبة الحسنى ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي مما تأمر به ﴿يُسْرًا﴾ أي سهلاً، متيسراً غير شاق، وتقديره ذا يسر .

﴿ثُمَّ أَنْبَأَ سَبِيًّا﴾ أي طريقاً راجعاً من مغرب الشمس إلى مشرقها .

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾
﴿٩٠﴾ .

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ يعني الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولاً من معمورة الأرض، قيل بلغه في اثنتي عشرة سنة ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ هم من الزنج، ليس لهم ستر من اللباس والبناء، لأن أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب، فإذا طلعت الشمس دخلوا الأسراب، فإذا ارتفع خرجوا إلى معاشهم، وهذا حال كل من يسكن البلاد القريبة من خط الاستواء، وقيل: إنهم كانوا كسائر الحيوانات عراة أبداً.

﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ ﴿٩٢﴾ .

﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي أمر ذي القرنين كما وصفناه لك، في رفعة المحل، وبسطة الملك ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ ﴾ من الأسباب والعُدَد والعُدَد ﴿ خُبْرًا ﴾ أي علماً، يعني أن ذلك من الكثرة، بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي طريقاً ثالثاً، معترضاً بين المشرق والمغرب، آخذاً من الجنوب إلى الشمال.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ ﴿٩٣﴾ .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ بين الجبلين المبني بينهما سدّه، وهما جبلان في آخر الشمال، من ورائهما يأجوج ومأجوج، ﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا ﴾ من ورائهما ﴿ قَوْمًا ﴾ أمة من الناس ﴿ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ أي لا يكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة، لأن لغتهم غريبة مجهولة.

﴿ قَالُوا يَنْذَا لَافْرَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ ﴿٩٤﴾ .

﴿ قَالُوا ﴾ بواسطة مترجمهم ممن هو مجاورهم ويفهم كلامهم ﴿ يَنْذَا لَافْرَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴾ هما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف، وقيل: عريبان من أجيح النار، وهو ضوءها وشررها، شبهوا به لكثرتهم وشدتهم، وهم من أولاد يافث، والترك منهم ﴿ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي في أرضنا بالقتل، والتخريب، وإتلاف الزروع، كانوا يخرجون أيام الربيع، فلا يتركون أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ أي

جُعلاً من أموالنا ﴿عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾؟ يحجزون خروجهم علينا فلا يصلون إلينا؟.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۖ﴾.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ أي جعلني فيه مكيناً قادراً، من الملك والمال ﴿خَيْرٌ﴾ أي مما تريدون أن تبذلوه إليّ من الخرج، فلا حاجة بي إليه ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي فَعَلَّةٌ وَصُنَاعٌ يحسنون البناء والعمل، وبآلات لا بد منها في البناء للتفريغ ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي حاجزاً حصيناً وهو أكبر من السد وأوثق، وهذا فوق ما يرجونه.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ۖ﴾.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ جمع زُبْرَة كغُرْف جمع غُرْفَة، وهي القطعة الكبيرة من الحديد، وتخصيص الأمر بالإيتاء بقطع الحديد دون سائر الآلات، من الصخور والحطب ونحوهما، لما أن الحاجة إليها أمسّ، إذ هي الركن في السد، ثم حَفَرَ الأساس حتى بلغ الماء، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب، والبنيان من الحديد حتى سد ما بين الجبلين ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي بين جانبي الجبلين، يعني آتوه إياها، فأخذ بيني شيئاً فشيئاً، حتى إذا جعل ما بين ناحيتي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في السمك ﴿قَالَ أَنفُخُوا﴾ أي بالكيران في الحديد المبني ففعلوا ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ﴾ أي المنفوخ فيه ﴿نَارًا﴾ أي كالنار في الحرارة والهيئة ﴿قَالَ﴾ للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة ونحوها ﴿ءَاتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ - أي نحاساً مذاباً حتى يلتصق ويتماسك مع الحديد.

﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ۖ﴾.

﴿فَمَا اسْتَطَعُوا﴾ بحذف التاء تخفيفاً، أي فعلوا ما أمروا به فصار جبلاً صُلْدًا، فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه وينقبوه فلم يستطيعوا ولم يقدروا ﴿أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أي يعلوه لارتفاعه وملاسته ﴿وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَقْبًا﴾ لشخه وصلابته، وهذه خارقة عظيمة، لأن تلك الزبر الكثيرة بالنفخ فيها تكون كالنار، وإفراغ القطر عليها أي النحاس المذاب شبه مستحيل، فكان ما كان، والله على كل شيء قدير. وقيل: بناه من الصخور مرتباً بعضها ببعض، بكلايب من حديد، ونحاس مذاب.

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (٩٨).

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أي قال ذو القرنين لمن عنده من تلك الديار ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى السد، وتمكينه من بنائه ﴿رَحْمَةٌ﴾ أي أثر رحمة عظيمة ﴿مِنْ رَبِّي﴾ على كافة العباد، لا سيما على مجاوريه، وفيه إيذان بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة، بل هو إحسان إلهي محض، وإن ظهر بمباشرة العباد ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ وهو يوم القيامة، لا خروج يأجوج ومأجوج كما قيل ﴿جَعَلَهُ﴾ أي السد مع متانته ﴿دَكَّاءَ﴾ مذكوكاً مبسوطاً مسوئاً بالأرض، والدك بالفتح والتشديد: الضرب والكسر وفيه بيان لعظم قدرته، بعد بيان سعة رحمته ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي كل ما وعد به ﴿حَقًّا﴾ أي ثابتاً لا محالة، واقعاً البتة.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَّعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ (٩٩).

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ كلام مسوق من جنبه سبحانه معطوف على قوله جعله دكاً، ومحقق لمضمونه أي جعلنا بعض الخلائق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ جاء الوعد ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي يضطربون اضطراب أمواج البحر، ويختلط إنسهم وجنهم، حيارى من شدة الهول، وذلك قبل النفخة الأولى، أو تركنا بعض يأجوج ومأجوج يَمُوجُ في بعض آخر، مزدحمين في البلاد

﴿وُفِّخَ فِي الصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية ﴿فَجَمَعْنَهُمْ﴾ أي الخلائق ﴿جَمْعًا﴾ أي جمعاً عجيباً، للحساب، والجزاء.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ أي أظهرناها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ جمعنا الخلائق كافة ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ حيث جعلناها بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً ﴿عَرْضًا﴾ فظيماً هائلاً، وتخصيص العرض بهم مع أنها بمرأى من أهل الجمع قاطبة، لأن ذلك لأجلهم خاصة، فهذا يجري مجرى العقاب، لما يتداخلهم من الغم العظيم.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ وهم في الدنيا ﴿فِي غِطَاءٍ﴾ كثيف، وغشاوة غليظة ﴿عَنْ ذِكْرِي﴾ عن آياتي وعن القرآن الكريم ﴿وَكَانُوا﴾ مع ذلك ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لفرط تصامهم عن الحق، وكمال عداوتهم للرسول ﷺ ﴿سَمْعًا﴾ أي استماعاً لذكري، وكانوا صُمّاً عنه، وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلة السمعية، كما أن الأول تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ أَوْلِيَاءِ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ - أي كفروا بي، والحسابُ بمعنى الظن، والهمزة للإنكار والتوبيخ - ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ من الملائكة، وعيسى، وعزير عليهم السلام، وهم تحت سلطاني وملكوتي، وقيل: هي الأصنام سماهم عباداً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ

أَمْثَالُكُمْ﴾^(١) ﴿مِتْ دُوفِيْ أَوْلِيَآءَ﴾ معبودين، فظنوا أنه ينفعهم، بل هم أعداء لهم يتبرؤون منهم ﴿إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ﴾ أي هيأناها ﴿لِلْكَافِرِينَ تَزُلَّ﴾ أي شيئاً يتمتعون به عند ورودهم، وهو ما يقام للنزول، أي للضيف، مما حضر من الطعام وغيره، وفيه تهكم بهم، وتخطئة لهم في حسابهم.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾^(١٠٦).

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ الخطاب الثاني للكفرة على وجه التوبيخ ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾؟ وهذا بيان لحال الكفرة باعتبار ما صدر عنهم من الأعمال الحسنة في نفسها، وفي حسابهم حيث كانوا معجبين بها واثقين بنيل ثوابها.

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾^(١٠٧).

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ﴾ أي ضاع وبطل بالكلية ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بالسعي لا بالضلال، لأن بطلان سعيهم غير مختص بالدنيا ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ﴾ أي وهم يظنون والمراد بهم أهل الكتاب قاله ابن عباس، وعن علي هم الخوارج، واللفظ عام يعمهم وغيرهم ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي بطل سعيهم المذكور، والحال أنهم يحسبون أنهم يحسنون في ذلك.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾^(١٠٨).

﴿أُولَئِكَ﴾ كلام مستأنف من جنبه تعالى لتبيين سبب خسرانهم أي أولئك المنعوتون بما ذكر من ضلال السعي مع الحساب المذكور ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ - بدلائله الداعية إلى التوحيد والنبوة، عقلاً ونقلًا

(١) سورة الأعراف، آية: ١٩٤.

والتعرض لعنوان الربوبية لزيادة تقبيح حالهم في الكفر المذكور ﴿وَلِقَائِهِ﴾ بالبعث وأمور الآخرة على ما هي عليه ﴿فَحِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ لذلك حبوطاً كلياً ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ﴾ لأولئك الموصوفين ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ - أي لا نجعل لهم مقداراً واعتباراً، لأن مداره الأعمال الصالحة، وقد حبطت بالكفر. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة، قال اقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾»^(١).

﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم أي الأمر ذلك، وقوله عز وجل ﴿جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا﴾ تصريح بأن ما ذكر جزاء لكفرهم، المتضمن لسائر القبائح - ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ أي مهزوءاً بهم، فإنهم لم يكتفوا بمجرد الكفر، بل ارتكبوا مثل تلك العظيمة أيضاً وهي السخرية والاستهزاء بآيات الله، ورسول الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي آمنوا بآيات ربهم ولقائه ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الأعمال الخيرية والطاعات ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ في حكم الله ووعدته ﴿جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾ هو البستان، وقال المبرد: الشجر الملتف، والأغلب أن يكون من العنب ﴿نُزُلًا﴾ أي ضيافة وكرامة لهم.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾.

(١) الحديث أخرجه البخاري رقم ٤٧٢٩ ومسلم رقم ٢٧٨٥.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْتَغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي لا يطلبون التحول عنها، إذ لا يتصور أن يكون شيء أعز عندهم منها، حتى تنازعهم إليه أنفسهم، وهذا الوصف يدل على غاية الكمال، لأن الإنسان في الدنيا إذا وصل إلى أي درجة في السعادة، فهو طامع إلى ما هو أعلى منها.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (١١٩).

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا﴾ وهو ما تمد به الدواة من الحبر، الذي يكتب به ﴿لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ لتحرير كلمات علمه وحكمته ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ لتناهيه لأن كل جسم متناهٍ ﴿قَبْلَ أَنْ نَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ والمعنى: من غير أن تنفذ كلمات ربي، لعدم تناهيهما، فلا دلالة للكلام على نفادها بعد نفاد البحر، وفي إضافة الكلمات إلى الرب من تفخيم المضاف، وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ كلام من جهته تعالى جيء به لتحقيق مضمونه، مع زيادة المبالغة ﴿بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ عوناً وزيادة، أي لو كانت بحور تمدّه ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله. وسبب نزولها أن اليهود لعنهم الله، قالوا للمسلمين: في كتابكم: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ثم تقرأون ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فنزلت، يعني أن ذلك خير كثير، ولكنه قطرات من بحر كلمات الله جلّ وعلا.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا﴾ (١١١).

﴿قُلْ﴾ لهم بعد ما بيّنت شأن كلمته تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ لا أدعي الإحاطة بكلماته سبحانه ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ من تلك الكلمات إنما تميزت عنكم بذلك ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له في الخلق و لا في سائر

أحكام الألوهية ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ حسن لقاء ربه، وقيل رؤيته تعالى كما هو حقيقة اللفظ، وإدخال الماضي على المستقبل، للدلالة على أن اللائق بحال المؤمن، الاستدامة على رجاء اللقاء، أي فمن استمر على رجاء كرامته تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ في نفسه خالصاً لا يريد إلا وجهه ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ إشراكاً جلياً ولا إشراكاً خفياً كما يفعله أهل الرياء.

عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَمِعَ سَمْعَ اللَّهِ بِهِ، وَمَنْ يَرَائِي يَرَائِي اللَّهُ بِهِ»^(١) قوله: «مَنْ سَمِعَ سَمْعَ اللَّهِ بِهِ» أي من عمل عملاً ليشتهر بذلك شهر الله بذلك يوم القيامة.

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشُرْكَهُ»^(٢) وقد ورد في فضل هذه السورة عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ، عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ»^(٣) وفي رواية: من آخرها.

نسأل الله أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، أن يخصنا بالمغفرة والفضل، في يوم الدين، إنه ذو الفضل العظيم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الكهف».

(١) أخرجه البخاري ٢٨٨/١١ في الرقاق، ومسلم رقم ٢٩٨٧ في الزهد.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد رقم ٢٩٨٥ باب من أشرك في عمله.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين رقم ٨٠٩ والترمذي في ثواب القرآن رقم ٢٨٨٨.